عصير الكتب
النشر الالكتروني

قصة قصيرة

التمثال الثائر

د/ أميرة زقزوق

قصة: التمثال الثائر

للكاتبة: أميرة زقزوق

تدقيق لغوي: عمّار الشريعي

تصميم الغلاف: محفوظ أحمد

التمثال الثائر

تطلعتُ بِحَيرَةٍ ممزوجة بالدهشة إلى التمثال الماثل أمامي، لم يكن بمخيلتي أيما شيء حين بدأت العمل به، وكأنما ذاكرتي قد تمثلت بأصابعي فبدأت تنحت بخفة من لم أنسها يومًا، ولم يعرف قلبي نبضات العشق سوى لها. حدقت بملامحها التي تنظر إليّ بحب فخفق قلبي بنشوة غابت عنه منذ كثير، تحسست يداي ملامحها الرقيقة وكأنما ليست هي من نحتتها للتو، وضعت سيجارة في فمي كي يشاركني دُخانها الذكريات، تمثلت أمامي حلقات الدخان تمامًا مثلما حلقت عاليًا في ذاك اليوم، كنت ما زلت ابن الثمانية عشر عامًا. أنهيت نحت التماثيل مع أبي وخرجت أسرق بعضًا من دخان السجائر التي أصبحت رفيقة أيامي منذ الصغر. كنتُ ساخطًا على حياتي المملة الرتيبة التي فرضها الزمن عليّ، رميت عقب السيجارة وكدت أدهسها لولا أن أخرجتني رؤيتها من عالمي الساخط، وكأنما رأيت ملاكًا يسير وسط البشر، شعرت بنظرتها نحوي فشعرت بنسيم

يداعب قلبي، حدقت بها وتاهت روحي بين معالم فتنتها، شعرها الأشقر ووجهها الملائكي تمكنا من سرقة لُبي، أي جمال هذا الذي يتمثل بفتاة من البشر؟ الحق يُقال أنني كدت أجزم أنها ملاك يسير فوق الأرض. أهي تبتسم لي؟ شعرت بهوة عميقة تنفتح من تحتي وكأنما ابتسامتها قد أفقدتني توازني، ولكن سرعان ما تمالكت نفسي ورددت لها الابتسامة، وكأنما لم تتوقع بسمتي عقدت ما بين حاجبيها وتعبير مثل التعجب اكتست به ملامحها، كاد جمالها يجعلني أنطلق ناحيتها لا ألوي على شيء سوى التَمكن من النظر إليها عن قرب، بيد أن والدتها قد جذبتها لتدخل معها المنزل. ظلت روحي معلقة بها وعقلي لا يكف عن استدعاء بسمتها كلما همت بالذهاب خلف طيات الذكريات. لكني لم أقوَعلى الانتظار لرؤيتها تارة أخرى صدفة، فقررت أن أصنع بنفسي تلك الصدفة، علمت من أبي أنهم جيران جُدد فتمسكت بها ذريعة للتودد إليهم، أو الحق يُقال التودد إليها على وجه الأخص، سرقت من ثلاجة منزلنا طبقًا من الحلوى كانت

أعددته لنا أمي وذهبت به إلي جيراننا الجدد، كانت السعادة تحركني وكأنما يحملني الشوق إليها وجدت نفسي أطرق بابهم وداخلي يتمنى لو فتحت هي الباب لي، فأكون أسعد الناس حين تحظى عيناني برؤية جمال ما فاقه جمال، ولكن والدتها من فتحت لي، كانت نظراتها جامدة تطلعت وكأنما تنتظر مني ما أود قوله، غلبت الخيبة على نبرة صوتي فما استطعت إخفاءها:

– تفضلي سيدتي هذه الحلوى بمناسبة قدومكم جوارنا.

أخذتها مني ببرود تتلوى على مسامعي كلمات العرفان المُحملة بالمجاملة، جاهدت عيناي كي تجولان داخل أنحاء المنزل خلفها بيد أن جسدها كان حائلًا أمامهما، أدركت أنها تنتظر مني الانصراف حتى أنني هممت أن أفعل ولكن صوتًا ما داخل عقلي صرخ بألا أفعل، وتحت نظرات الاندهاش الذي تملك مني قبلما يتمكن من السيدة شرعت الكلمات تخرج من فمي وكأنما لست أنا القائل:

–هل من الممكن أن أحظى بكوب شاي معكم؟

أفسحت لي المجال للدخول وملامح الدهشة لم تتخل عن وجهها، أعلم أنها تتساءل عن جُرأتي بيد أني لم أهتم، تطلعت بالمنزل حولي بينما أتخذ مكاني على إحدى الأرائكِ، كنتُ أبحث عنها إلى أن خرجت من إحدى الغرف كما تبزغ الشمس لتغلب عتمة الليل، تركتنا والدتها وعلى الأغلب ذهبت لتعد الشاي، ووجدت قدماي تقودانني نحوها، وكأنما كانت المغناطيس لروحي، تلعثمت الكلمات على شفتي أمام جمالها الأخاذ، كانت أكثر جمالًا عن قرب أو هكذا خُيل إليّ:

-سُررت بلقائك.

فتر ثغرها الرقيق عن شهقة خفيفة، وبرزت الحيرة بمقلتيها، لم أفهم ردة فعلها فأخذت أُعيد جملتي وبدأت ألوم نفسي على هذا التصنع، ما من أحد الآن يقول هذا السخف (سُررت بلقائك)! لا بد وأنها الآن تتساءل عن هذا الأخرق أمامها، ولكن صوتها الناعم ترقرق على مسامعي وهي تقول بجزل ممزوج بالدهشة:

-هل تراني؟!

حدقت بها بتعجب، هل تسخر مني؟ أم تلعب معي؟ كانت ملامحها البريئة صادقة تمامًا، طلّت الحيرة بأعينها مثلما تمكنت من عقلي، أجبتها ضاحكًا:

–ولمَ لا أراكِ؟

اتسعت حدقتاها وقالت بخفوت كمن يُفشي سرًا هامًا: لأنني لستُ حية.

ضحكت وكأنما لا أجد سوى الضحك ردًا، سايرتها بالحديث قائلًا:

–هذا ما قلته لنفسي حين رأيتك بالطبع أنتِ ملاك.

زادت العقدة بين حاجبيها الرفيعين، وعلقت بنفس نبرتها الخافتة:

–بل أنا ميتة، لا يراني أحد فكيف إذن تراني أنت؟

جاءت كلماتها كضربة فوق رأسي أفقدتني تفكيري لثوانٍ، ثوانٍ معدودة قبل أن تنهشه الحيرة، هل هي ميتة بالفعل؟ ولكن هذا شيء لا يصدقه عقل.

جاء صوت والدتها من خلفي كالمصباح داخل عتمة الحيرة فسألتها بلهفة ويدي تشير خلفي ناحية الفتاة:

-تقول إنها ميتة؟

نظرت والدتها إلي ببرود ولم تتجشم حتى عناء النظر لابنتها، وطلبت مني الانضمام معها لشرب الشاي، حانت مني التفاتة نحو الفتاة لكنني لم أجدها!!

انضممت إليها وجسدي يرتجف فزعًا، هل أرى الأموات؟ ولكن كيف؟ ولمَ أنا ولمَ هذه الفتاة بالذات؟ لم يحدث معي شيء كهذا من قبل، تذكرت القصص التي كُنت أقرأها عن الأشباح فسرت رعدة خوف بجسدي، تردد صدى صوت بعقلي:

-هي دائمًا تظن ذلك، قال لنا طبيبها أن هذا مرض نفسي.

وكأنما صحوت فجأة من غفلة، ظهرت السيدة أمامي من العدم وهي تقول هذا وكأن الأمر لا يعنيها، تنهدت براحة ليست مكتملة، فجزء من قلبي اطمأن لفكرة أنها حية، والجزء الآخر تألم لحالها، كيف لفتاة جميلة مثلها أن تُصاب بمرض نفسي؟

حملقت بالسيدة أمامي وهي ترتشف الشاي لأسألها فجأة: ألستِ والدتها؟

شعرت بندم سريع حيث خرج سؤالي فظًا أكثر منه فضوليًا، ولكن الندم سرعان ما تخلى عني حين أجابتني ببساطة: نعم والدتها وهي تُسمى ريم، إن كُنت تود صداقتها فلا مانع لديّ فهي أول مرة تُبدي ردة فعل مع أحد غريب.

سألتها وإن احتّل الجزل مكانًا كبيرًا بقلبي لعرضها الرائع: لمَ لا تُعالجونها؟

هزت كتفيها بلا مبالاة:

–هي تظن أنها ميتة لا تحتاج إلى الطعام والشراب، وجزء كبير من علاجها يتطلب تناول الأدوية.

كُنت لا أفهم جيدًا طبيعة هذا المرض، بل إني لم أسمع به من قبل ولا أفقه شيئًا عن طبيعة علاجه بالطبع، ولكن بالتأكيد هذه السيدة الماثلة أمامي لا تُحاول جاهدة، هذا يظهر واضحًا جليًا للعيان من خلال لا مُبالاتها المُنفرة هذه.

****

في اليوم التالي كنت أساعد أبي بجد، ولأول مرة لم أكن ناقمًا على العمل الممل معه، سرعان ما حملني النشاط للانتهاء من واجباتي كلها معه، وعلى طريق الشوق ذهبت إليها.

سرعان ما وجدت نفسي وجهًا لوجه مع ريم، تنفست روحي بأنفاس الحب وأنا أتأمل ملامحها الرقيقة، كانت بسمتها كقطرة غيث سقطت بعد جفاف طال، سألتها كمن يفتح مجالًا للحوار:

–ريم، كم عمركِ؟

أجابت وهي ساكنة لا يرمش لها جفن:

-لقد فارقت الحياة بعمر الرابعة عشر وقد مضت الآن سنتان.

انقبض قلبي لوقع حديثها، إنها تصدق حقًا أنها ميتة، أجبتها بتحدٍ وكأنما دخلت بمنافسة معها حول من سيصبح أكثر إقناعًا:

-إن كُنتِ ميتة فكيف يراكِ والداكِ؟

أجابت ببساطة:

-ومن قال إنهما يريانني؟

-تعالي لنُثبت هذا الآن أين هما وسأسألهما إن كانا يريانكِ أم لا؟

هنا أطرقت قبل أن تجيب بأسى طال ذرات الهواء وكأنما اقتحمت قلبي فأحزنته:

-أبي دائمًا بالعمل، وأمي لا تهتم لأمري بل إنها لم تحزن لوفاتي.

رفعت وجهها وبأعين منكسرة استطردت حديثها:

–لم يكن لوجودي معنى من الأصل كي يتأثرا بوفاتي.

جزعني يأسها، وددت لو أحتضنها داخل صدري وأهمس بأذنها: أنا معكِ، أنا هنا جواركِ أهتم لأمرك ولا يهم أحد آخر.

ولكني أكتفيت بوضع يدي على يدها الناعمة، بدت أصابعها صغيرة جدًا تحت كف يدي الكبير، هنا طرقت فكرة لذهني وكأنما كانت لمسة يدها الشرارة الأولى للنور:

–ريم، إن كُنتِ ميتة فما كان من الممكن أن تشعري بلمسة يدي الآن.

التفتت نحوي بثبات، نظرت إلي نظرة خاوية، نظرة أودت بآمالي دفعة واحدة وهي تجيب بهدوء:

–ومن قال لك أني أشعر بها؟

****

كانت الأيام تمر وما كنت أريد ذلك، فكلما مر يوم زاد شحوب ريم وهزلها، حاولت معها بكل الطرق كي أقنعها بضرورة الأكل والشرب، فما كان منها سوى جواب واحد لا تتخلى عنه:

-كيف لميت أن يأكل وهو لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الحي كي يبقى على قيد الحياة؟

لم تكن ريم يومًا كثيرة الحركة ولكنها تخلت عما بقي لديها من قدرة حتى على القيام بالأمور العادية، وسرعان ما لازمت الفراش، زاد نحولها وزاد معه أسى قلبي وحزنه، وقفت أمام فراشها أتطلع إلى الوجه الذابل وقلبي يأن وجعًا على هذه الفتاة، احترقت روحي وأنا أراقبها أمامي تتخلى عن آخر رمق في الحياة وأنا عاجز، نهشني اليأس حتى كدت أقبل قدم والدي كي يبعث لأحد من الأطباء النفسيين، لكن والدها كان قد سبق والدي، سبقه ولكن بعد فوات الأوان، جاء الطبيب بعد أن ذهبت روحها، وفي ذلك اليوم حين وقفت أمام فراشها أرى الطبيب وهو يغمض عينيها بيده، كانت روحي قد احترقت مع ذهابها، ولم أعد يومًا

كما كنت، أعلم أني بطريقة أو بأخرى كنت قد شاركت بموتها، لمَ لم أطلب من أبي أن يجلب الطبيب مبكرًا؟ لمَ لم آخذها معي لمنزلنا ولا أدعها لوالديها هذين؟ لمَ كنت قليل الحيلة بهذا الشكل؟

مددت يدي أتحسس التمثال أمامي، كان يُحملق بي بحزن وكأنما يلومني على موت صاحبته، بدت الرؤية ضبابية فتبينت أن الدموع تكدست بمقلتيَّ، خرجت وكأنما أهرب من نظرات التمثال التي شعرت بها كأسهمٍ تُدمي قلبي، شحذت نفسًا من السيجارة وتأملت البخار وأنا أتساءل هل ما زلتُ لم أنسها وقد شارفت على الأربعين من عمري لأني قد أحببتها بصدق، أم هو مجرد انتقام من نفسي لأني لم أكن قادرًا على حمايتها من الموت؟